نظرات في الشعر

للأستاذ محمود البشبيشي

من الشعر ما يلعب بالنفوس لعباً ، بل يقلب جوهرها قلباً ، فيبعث في الرجل الصخرى المزاج روحاً أرق من نسيم الفجر ، وألطف من شفاه الورد ، وأنقى من دموع الفرح ؛ ومن الشعر ما ينفذ إلى القلوب بغير أذن ، لأن كل لفظ فيه لفظ من القلب ، وكل مقطع من مقاطعه قطعة من الفؤاد ، تتفتح له القلوب لأنه منها ، وتتلقاه خافقة لأن كل نغم فيه من خفقاتها . في الشعر قيودٌ لا انفكاك لها ، ولكنها قيود محبوبة ، يحس بضرورتها من كان من ذوى النفوس الحية ، والقلوب الندية ، ويحس بضرورتها من يضيقون بحرية الحياة الجائرة وقد فسدت ، وحرية الشهوات والنزعات الداجية وقد تمادت ، فيميلون إلى قيد من قيود الشعر يسعدون به ، ويشعرون فيه بمعنى حرية الطهر والنقاء . إنهم يشعرون بالحرية في قيده ، لأن الشعر حين يقيدهم إنما يقيد سوراً حوية من الحياة الجائرة ، ويمنعها من الوصول إليهم ، أو يطهرهم منها لحظة ، ويتيح لهم أن يتصلوا بعالم مُنغَّم حالوتى هو عالم الشعر

بحث الكتاب في الشعر ، وسيبحثون لأنه موضوع الشعور الحي ، موضوع الروح : موضوع الحياة ، سار مع الزمن ، يضعف في عهد فتذبل أناشيده على الشفاه ، ويشتد في عهد فتتغنَّى به القلوب ، وما ضعف ولا اشتد لعجزه عن مسايرة الزمن وأطواره ، ولكنه ضعف حين ضعفت المشاعر النبيلة في النفوس، وغشيت القلوب الأطماع ، واشتد حين تلألأت في النفوس أنوار الشعور ، وأحس الناس أن في صدورهم قلوباً تخفق ، فمالوا إلى ترجيع الكلام ، حتى يجانسوا بين أنغام القلوب وبينه ... ولعل هذه الصلة هي أصل الشعر ! ومن هنا كان الشعر محبباً إلى النفوس لأنه منظم لمشاعرها ، ولأن الطبيعة وهي مصدرُه مُنظَّمة مُنمَّقة . ولا عجب ، فكل ما في الشعر من وزن وقافية وموسيقى أساسه النظام . من روعة الشعر أنه خلق نفسه خلقاً في حياة الإنسان ، لينظمَ ويرتب وينسق كل ما يتصل فيها بالشعور ...

قاله الشاعر حين اضطربت مشاعره في نفسه وغلبته الآلام والآمال ، وتراكت ففقدت النظام ؛ وشعر هو بذلك فضاق واضطرب ، وضج وثار ، وفكر وتأمل ، ولما صدق تأمله أدرك أن في نفسه تعبيراً عجز عن بيانه ، وأن حديثه وخطابته لم يجدياه نفعاً ولم يخففا ألمه ؛ فهو لا يزال مضطرباً ، عاجزاً عن بيان

وهوله ، فلم يكن من ابنتها المخلصة وكنتها الوفية إلا أن جاءتا بالشمش فوضعتاه أمام فراشها وطفقتا تعقدانه أمامها ، وتعملان برأيها فكان ذلك أجمل ما تتمنى العجوز

واشتدت العلة بالمرأة وانطلقت تصيح حتى اجتمع حولها أهل الدار جميعاً ، ووقفوا ووقف الأطفال صامتين وحبهم لهذه العجوز الطيبة التي عاشت عمرها كله لزوجها وبنيها يطفر من عيونهم دمعاً حاراً مدراراً ، وهم لا يدرون ماذا يعملون ، يودون لو تفتدى بنفوسهم ليفدوها . ثم هدأ صياحها ، وجعل صوتها يتخافت حتى انقطع ، فتسلل بعض النسوة من الغرفة ، ووقف من وقف حائراً يبكي

ولكن العجوز عادت تنطق بعد ما ظنوها قضت ، فاستبشروا وفرحوا ؛ وسمعوها تتكلم عن راحة الشيخ وعن المائدة والساعة الثامنة والبابوج والقبقاب ... بيد أنها كانت يقظة الموت ، ثم أعقبها الصمت الأبدي . وذهبت هذه المرأة الطيبة ، وكان آخر ما فكرت فيه عند موتها ، وأول ما كانت تفكر فيه في حياتها : زوجها ودارها . . .

* * *

ارتفع الكابوس عن صدور الأطفال حين اختل نظام الفلك ولم يبق لهذا الموعد المقدس في الساعة الثامنة روعته ولا جلاله ، ولم يعد يحفل أحد بالشيخ لأنه لم يعد هو يحفل بشيء . لقد فقد قرينه ووليفه وصديق ستين سنة ، فخلت حياته من الحياة ، وعادت كلمة لا معنى لها ، وانصرف عن الطعام وأهمل النظام ، فعبثت الأيدي بطلبه وأكياسه ، وامتدت إلى (الخرستان) السرية التي أصبح بابها مفتوحاً ، فلم تبق فيها تحفة ولا مالاً ، وهو لا يأسى على شيء ضاع منه بعد ما أضاع شقيقة نفسه . وتهافت هذا البناء الشامخ ، وعاد ابن الثمانين إلى الثمانين ، فانحنى ظهره وارتجفت يداه ووهنت ركبتاه ، ولم يكن إلا قليل حتى طويت هذه الصفحة ، فختم بها سفر من أسفار الحياة الاجتماعية في دمشق كله طهر وتضحية ونبل !

علي الطنطاوي
المحامي

ما يشعر به فى قرارة نفسه ... وهو لا يزال يشكو ولا يعقل أن يكون سبب شكواه ضعفاً فى رجولته وهو ابن البادية ... إذن لعل فى أسلوب شكواه والتعبير عن آماله نقصاً ... إنه لكذلك فراح يبحث عن لغة جديدة ينفث بها آلامه وآماله فتهدأ نفسه ، فكان الشعر لغته الجديدة ، وكان شفاء علته ، وكان لسان الروح ولسان القلب .

ما أروع الشعر ! لقد خلق نفسه خلقاً ، بل لقد خلقته حاجة النفس البشرية إلى تنظيم مشاعرها ، ومنذ عرف الشعر أصبح ترجمان القلوب ، ولغة النفوس ، ينتقل بك من عالم القيد إلى عالم الخيال ، وتجد أنت فى ذلك لذة لا تدرى كنهها ، ولا تعلم مصدرها ، ولكنك برغم ذلك تحبها وتود الصبح فى سمائها الحالمة ، والشعر يغمر نفس الشاعر وجداناً موزوناً منغماً

يولد الشاعر والشعر فى روحه سر من أسرارها ، لا يظهر إلا إذا انتظمت مشاعره ، ولكنه لا يتقيد بسن ولا بزمن ، وقد تتفاوت مواعيد ظهوره بتفاوت نفوس الشعراء واستعدادها لتنظيم حياتها بطبيعة النظام الشعرى الكامن فيها ، فمن الشعراء المفطورين من يبادى به العمر قبل أن يقول الشعر ، ومنهم من تُشعُ نفسه إشعاع الشعر ، وهى فى أيام الصبا الندية . . . ليس معنى هذا أن ملكة الشعر تقبر طيلة هذه الفترة الخامدة فى نفس الشاعر ، بل إنها لتظهر ولكن فى صور أخرى كأن يميل صاحب النفس الشاعرة فى طفولته إلى اللعب المنظم وجمع الصور الملونة وإلى سماع الموسيقى ، وفى شبابه إلى الرسم الجميل وابتكار الصور البديعة . ذلك بأن ملكة الشعر موجودة فيه ، تنظم اتجاهات نفسه ، وتعمل على السمو بها حتى تهيأ لرسالة الشعر . ومن عظمة الشعر أن يكون للشاعر المكفوف عيناً يغمر قلبه بالنور فيبدد غياهب الظلمة ، وينثر الشعر أمامه نجوماً وشموساً تبهر عيون المبصرين . ألا إن الشعر وحى يرتفع بالشاعر إلى مرتبة الروحانية ، فنى استطاعة الشاعر أن يعرض تلك الصور الحسية الجافة الصامتة عرضاً كله حيوية ناطقة ؛ يصور لك الشىء الذى لم تره ، فتشعر كأنك رأيته ولمسته وخبرته . وما رأيته ولا لمسته ، ولكنه سحر الشعر وفنه وإعجازه ، يجعل من المعنويات محسات ، ومن الأخيلة حقائق ، فما أبدعه وما أروعه ! إنتهينا إذن إلى أن الشعر لغة روحية ، هبت نسيمها على النفوس عند ما انتظمت المشاعر ، وحينما تهيأت لتلقى الرسالة الشعرية ؛ وأنه أسلوب خلق نفسه فى الإنسان خلقاً ، عند ما ضاقت النفس بمعان لا تصورها خطابة ، ولا يعبر عنها حديث ، وقد ارتاحت النفوس إلى الشعر لأن طبيعته الوزن والنغم والنظام والأناقة ؛ وأحبته حين نظم مشاعرها ، ونظم أحاسيسها فأراحها

وإن الشاعر المفطور يخلق وفى طبعه روح الشعر ، وإن روح الشعر لا تخمد بخمود روح الشاعر ، بل إنها لتظهر فى صور فنية أخرى . ولما كان الشعر وليد العاطفة المنظمة لابست أغراضه أغراض النفس أصدق ملابسة ، وتساوقت معانى القلوب وأحاسيسها فى معانيه وأحاسيسه ، وصار أمراً طبيعياً أن يكون الشعر صورة لنفسية الشاعر ، وعبيراً لأزاهير حبه ، ولهيباً لما يشتعل بين جوانحه من عاطفة ، وشعاعاً لما يتألق فى وجدانه من آمال . وكان بكل هذا حقيقاً أن يكون مجتلى لسائر العواطف الإنسانية السامية

وإن الباحث البصير ليستطيع أن يحدد زمن الشعر الذى يقرؤه إذا أوتى حظاً من دراسة النفس فى مختلف العصور ، بل إنه ليستطيع أن يهتدى بالشعر إلى كثير من أخلاق الشعوب ، فيعرف ما شاع فى كل عصر من الأخلاق ، وما اضطرب فيه من العادات والتقاليد ، وما كان يعتبر فيه مناط الفخر والفاضلة ، وإنه فى كل ذلك لسائر على هَدْى ما يتأرج به الشعر ، وما تشمه أرواح الشعراء ؛ هبك قرأت الأبيات الآتية :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد ... لنفسى حياةً مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما
نُفلق هاماً من رجال أعزةٍ ... علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

ألا تشعر بعد طول التأمل ، بل بقليل منه أنها من إنتاج الأدب القديم ، أدب التضحية والفداء ، عصر الشهامة والإقدام ؟

وهبك قرأت قول الشاعر :

إن العيون التى فى طرفها حَوَر ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله إنسانا

ألا تحكم لأول نظرة بأن هذا كلام مُمْعنٌ فى الحضارة ، ممعن فى الرفاهية ، فياض بالرقة ، تلوح على محيّاه نَضْرَةُ النعيم ، فلا يلحق بنفسك أقل عجب إذا علمت أنه من كلام (جرير) .

وهبك قرأت قول الشاعر :

أصبحت لا أحمل السلاحَ ولا ... أملك رأسَ البعير إن نَفَرا
والذئب أخشاه إن مررت به ... وحدى وأخشى الرياحَ والمطرا

ثم قرأت بعده قولَ الشاعر :

أصبحت لا أستطيع الثوب أحمله
وقد أكون وضافي الدرع سربالي
ولا تكاد يدي تجري شبا قلمي
وكان طوعَ بناني كل عسّال !

ألا تشعر بأن الشاعر الأول بدوي النشأة ، صحراوي البيئة ، تتراءى في كلامه مظاهر العربي الصميم ، الذي كل عتاده السلاح والبعير ، ومن طبيعته جوب الفلاة والتعرض للذئاب والرياح والأمطار ؟ أو لا تشعر أيضاً بأن روح الحضارة يهب من عبارة الشاعر الثاني ؟ أفليس أدق فكراً وأحكم نظاماً من الشاعر البدوي ؟ أو ليس له من مفاخر الحضري القلم يجريه كيف شاء ؟ وإذا أمعنت في التأمل استطعت أن تدرك أن الشاعر الثاني فارس في حلبتي البيان والحرب . ألا تراه يقرن بين القلم والرمح ؟ فهل تعجب بعد ذلك إذا علمت أنه رب السيف والقلم (محمود باشا سامي البارودي) ؟ !

وهكذا يستطيع الفنان البصير أن يلمح صور الزمان والحضارات في مرآة الشعر ؛ ويستطيع أن ينتقل من عهد إلى عهد على هدًى من الشعر ومن نور البصيرة .

وإنك لتستطيع أن تزن أخلاق الشاعر بشعره ، وتدرك ما كان عليه من مختلف الصفات ، وتعلم من خلال شعره أكان قوي الروح أم ضعيفه ، جياش العاطفة أم فاترها ، بعيد مدى الآمال أم رهن محابس القنوط ، واسع الرغبة في الثلبة وذيوع الصيت أم قانعاً بما يفرضه عليه الزمان ، وتقيده به المقادير

الشعر أصدق في الإفصاح عن نفسية الشاعر من المخالطة ، لأن الشاعر قد يكون في وقت المخالطة متكلفاً مسوقاً إلى ملابسة الأحوال التي تضطرب حوله . أما إذا قرض الشعر ، فإن عواطفه تتراءى بين سطوره ، وإن حاول الاختفاء واجتهد في التنكر ؛ ومن هنا كان الإنتاج الشعري صورة لمختلف الوجدانات ؛ وطبيعي أننا نريد من كل ما تقدم شعر العاطفة ، لا الشعر البالي المأجور ، ولا عجب بعد ذلك أن توفر الناس على الشعر الحي النابض بالشعور الإنساني دراسة واستيعاباً وشرحاً ونقداً ، أو معارضة واقتباساً ، وكما دل الشعر على أن أبا نواس كان صاحب مجون ، وأن البحتري كان صاحب موسيقى ، كشف لنا عن سر طموح المتنبي وتحليقه في سماء عالية ، وغلوه في الفخر والاعتزاز بقدره ، فقد كان الرجل يحمل قلب ملك ، ولسان شاعر ؛ فلطالما رأيناه يبوح برغم محاربة الدهر له بما يضطرب في صدره من آمال جسام، وقد كان لا يصنع بما دون النجوم ، وكان يريد من الزمان مالا يبلغه الزمان من نفسه ، أليس هو الذي يقول :

وما رغبتي في عسجد أستفيده
ولكنها في مفخر أستجده
إذا لم تَنُط بي ضيعة أو ولاية
فجودك يكسوني وشغلك يسلب

وهكذا كان الشعر وليد العواطف إذا احتدمت ، ومنظمها إذا اضطربت ، ومرآة الحياة العامة والخاصة ؛ تنطبع عليها خبايا النفوس ؛ فما أروع الشعر وما أجله ! !

(المنصورة) محمود البشبيشي

إدارة البلديات

تطرح بلدية المنصورة في المزايدة العامة بيع براميل صاج فوارغ وصاج خردة موجودة بمخازن البلدية وتحدد ظهر ١٥ مايو سنة ١٩٤١ آخر موعد لقبول العطاءات بالبلدية وتطلب الشروط منها نظير ١٠٠ مليم ٨٠٤١

إدارة البلديات — مبان

تقبل العطاءات بإدارة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر ١٠ مايو سنة ١٩٤١ عن عملية إنشاء دار لبلدية زفتى وتطلب الشروط من الادارة نظير ٥٠٠ ر ١ ملم جنيه

٨٠٣٤